سورة العنكبوت

وهي مع البسملة سبعون آية وسبعة ركوعات

زمن نـــزولها: إن هذه السورة كلها مكية عند ابن عباس وابن الزبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد. ويرى يحيى بن سلام أنها مكية إلا اثنتي عشرة آية من أوائلها فهي مدنية. ويرى قتادة أن هذه السورة مدنية. أما عليّ ﷺ فيرى أنها نـــزلت بين مكة والمدينة (فتح البيان، والبحر المحيط). وأما المستشرقون فإن "نولدكه" و"ويري" يعتبرانها مكية بيد أنهما يريان أن الآيات العشر الأوائل وكذلك الآية الخامسة والعشرين منها مدنية. (تفسير القرآن لويري)

الترابط: قال الله تعالى عند نهاية سورة القصص ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾.. أي يا أتباع محمد أمسكوا بوحدانية الله دائمًا وانشروها في العالم ولا تخافوا أن البلاد هي للمشركين الذين سيعادونكم، فإن كل شيء فانٍ سوى الله تعالى، ولن يبقى إلا الذي شملته العناية الإلهية، فما الفائدة من خوفكم من المشركين؟ عليكم أن تُقوّوا صلتكم مع الله تعالى وتبتغوا مرضاته. أما سورة العنكبوت فهي استمرار لنفس الموضوع، حيث بين الله تعالى للمسلمين أنكم محاصرون بين المشركين كاللسان بين الأسنان، ولكن اعلموا أن عظمة إيمان المرء إنما تنكشف حين يبلغ عداء المعادين ذروته. إذا كنتم تظنون أن طريقكم إلى النجاح مفروش بالورود فأنتم على خطأ. لا شك أنكم قد أقررتم بالإيمان بلسانكم، ولكن الله تعالى يريد أن يشهد عَملكم على إيمانكم، وأن تسجلوا هذا الإقرار بدمائكم حتى يكون هذا شهادة عملية للأجيال القادمة إلى يوم القيامة. ولا تظنوا أن هذه التضحية قد طُلبت منكم وحدكم، بل قد طالبنا بها الذين خلوا من قبلكم أيضًا، لأن من سنة الله تعالى أنه لا يعتبر قومًا أهلاً لنعمه

لمجرد إقرارهم بالإيمان باللسان، بل إنه تعالى يلقيهم في بوتقة الشدائد والاختبارات ويمررهم في المصائب المروعة لينكشف على الناس صدقهم أو كذبهم في إيمانهم، وليعرف الناس نوعية الإيمان الذي يحظى بالقبول عند الله تعالى.

ملخص محتواها: يقول الله تعالى أحسب الناس أن يتركهم الله تعالى لمجرد قولهم بأفواههم أنهم مؤمنون، وأنه لن يختبرهم حتى يكشف حقيقة إيمانهم للناس. (الآية ٣)

وليعلم المؤمنون أن الله تعالى قد اختبر الذين كانوا قبلهم ولا بد أن يميز المؤمنين في هذا العصر ويكشف للعالم ما إذا كانوا صادقين في إيمانهم أم كاذبين. (الآية ٤)

أيظن الذين يعملون السيئات أننا لن نعاقبهم أو أنهم سينجون من عقابنا بطريق أو بآخر؟ إنه لظنٌّ باطل. إنما السبيل للنجاة من عقابنا أن يتوب المرء ويعود إلينا. (الآية ٥)

إن موعد لقاء الله آتٍ حتمًا، ولكن على المرء أن يتذكر أنه إذا عمل الخير فلن ينفع إلا نفسه ولا فائدةً فيه لله تعالى. فمن عمل صالحًا فإنما يعمل لصالحه، ومن عمل سيئة فلن يضر بها إلا نفسه، والله غني عن عمل الإنسان. (الآيتان ٦ -٧)

بيد أن الله يفرّق بين السيئة والحسنة وقت الجزاء. إنه رحيم وكريم فيجزي على العمل الصالح أفضل الجزاء، كما أنه يستر على أخطاء المخطئين. (الآية ٨)

لقد أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه، ولكن لو أمراه بخلاف وحدانية الله تعالى فعليه ألا يطيعهما لأنه سيحاسَب من قِبل الله وليس من قِبل والديه، فما هو خاص بالله تعالى فليفوضه إلى الله. (الآية ٩)

ثم أخبر الله تعالى أن المؤمنين سينالون بعد الموت درجات عُلا، وسيُدخلهم الله تعالى في زمرة الصالحين. (الآية ١٠)

عاد الحديث هنا إلى موضوع الآية الأولى من هذه السورة حيث أخبر الله تعالى أن من الناس من إذا أوذي من قبل أهل الدنيا بسبب إيمانه اعتبر أذاهم كعذاب الله، فيرجع عن باب رحمة الله بعد أن يكون قد اقترب منه. على المؤمن أن لا يكون مثله، بل ينبغي أن يظل ثابتًا على الحق بقوة وشجاعة.

ثم أخبر الله تعالى أن الجبن قد أفضى بأصحابه إلى النفاق، فإذا أصاب المسلمين

نصر من الله قالوا لهم إنّا معكم. إن هؤلاء لا يفكّرون أن الله هو الذي يجزي على الإيمان وليس محمد ﷺ، وأن الله يعلم ما في الصدور ولكن محمدًا لا يعلمه، فما الجدوى من ادعائهم بالإيمان وقت الراحة والرقي؟ كلا بل لا بد أن يختبر الله تعالى الناس ليميز المؤمنين من المنافقين، وليتحول علمه القديم إلى العلم الواقعي وليجزي الناس بحسب هذا العلم، فلا يبقى لأحد فرصة للاعتراض. (الآيتان ١١-١٢)

ثم بين الله تعالى أن الكفر يصيب قلوب أصحابه بالصدأ، فيتكلمون بكلام غير معقول، حتى إنهم يقولون للناس لو اتبعتمونا لحملنا ذنوبكم، مع أن الجميع يعلم أنه أمر مستحيل. الحق أنهم سيحملون حملهم وحملاً زائدًا أيضًا؛ إذ خدعوا الناس وارتكبوا إثمًا زائدًا. (الآيتان ١٣ – ١٤)

بعد ذلك بدأ الحديث عن نوح الذي كان من أتباعه إبراهيم الذي كان موسى من أتباعه. يقول الله تعالى إن نوحًا ظل يدعو الناس فترة طويلة ولكنهم لم يصدقوه حتى أهلكهم الله تعالى بطوفان، ونجّى منه نوحًا وأصحابه وجعلهم آية للذين أتوا بعدهم. (الآيتان ١٥ – ١٦)

ثم تحدث الله عن إبراهيم عليه السلام وأخبر أن الناس في زمنه لم يأخذوا العبرة من واقعة نوح عليه السلام، بل وقعوا في أعمال الشرك والوثنية، فقال لهم إبراهيم اعبدوا الله واتقوه، واعلموا أن العمل بنصحي خير لكم إن كنتم تعلمون. إنكم تتركون الله تعالى وتعبدون الأصنام مفترين على الله تعالى بشأنها، ولا تتفكرون في أن آلهتكم لا تمدّكم بالرزق الذي تحتاجون إليه لاستمرار حياتكم، إنما يرزقكم الله الذي ينـــزل الماء من السماء، ويُخرج الغلال من الأرض، فتوجهوا إلى الله الذي يرزقكم واعبدوه وحده، لأنكم سترجعون إليه في نهاية المطاف. وإذا لم تعملوا بأحكامه فتعلمون أن الأمم السابقة أيضًا قد أشركت بالله فكيف كان مآلهم؟ إنما أنا رسول وليس عليّ إلا البلاغ، وليست مهمتي إكراه الناسِ على الإيمان قسرًا. (١٧ -١٩)

ثم بين الله تعالى أن الكافرين لا يتفكرون في أنه حتى النظام الذي يقيمه الله تعالى في الدنيا هو أيضًا يتغير بعد فترة من الزمن بسبب تغيُّر الناس، فكيف يظنون أن نظامهم الذي يفرضون على الناس قهرًا سيدوم؟ فما الفائدة إذن من أن يفرضوا

على الناس عقيدة لا بدّ أن تتغير في يوم من الأيام. (الآيتان ٢٠-٢١)

ثم بين الله ﷻ أن عذابه لا ينـــزل إلا على القوم الذين يستوجبونه بحسب مشيئة الله، وأن رحمته أيضًا لا تنـــزل إلا على الذين يستحقونها بحسب مشيئته تعالى. (الآية ٢٢)

ثم بين الله تعالى أن البشر لا يستطيعون مقاومة مشيئة الله تعالى، فإذا أراد أن يرفع قومًا فلا بد أن ينالوا الرفعة، وإذا أراد أن يضع قومًا فلا بدّ لهم من السقوط. (الآية ٢٣)

ثم بين الله تعالى أن أكبر سبب وراء إنكار الناس لآيات الله ولقائه هو قنوطهم من رحمة الله، وهذا القنوط نفسه يشجّعهم على ارتكاب معاص كبيرة. فمثلاً لما نصح إبراهيم عليه السلام أهل عصره بالتوجه إلى الله تعالى والوصال به ﷻ قالوا اقتلوه أو حرقوه، ذلك لأنهم كانوا قد أصبحوا متجاسرين على المعاصي جرّاء قنوطهم من لقاء الله تعالى، ولكن الله تعالى نجّى إبراهيم من الناس بمعجزة. (٢٤-٢٥)

ثم بين الله تعالى أن العقيدة الوثنية لا تستند إلى دليل، وإنما يعبد هؤلاء الأصنام ليجمعوا أهل عقيدتهم على مركز واحد ويؤسّسوا حزبًا موحّدًا، ولكن مثل هذه الصلات والصداقات تبقى محصورة في نطاق الحياة الدنيا، إذ يلعن بعضهم بعضا في الآخرة، كما لن تنصرهم آلهتهم شيئًا. (الآية ٢٦)

ثم بين الله تعالى أن لوطًا كان من أتباع إبراهيم. وكان قوم إبراهيم يعادونه عداءً شديدًا، فأعلن أنه سيهاجر من بلدهم. وحيث إنه ترك وطنه وأقاربه لوجه الله تعالى، فتقبَّل الله إخلاصه ووهب له إسحق ويعقوب وجعلهما نبيين، وليس ذلك فحسب بل قرر بعثة محمد رسول الله ﷺ من ذريته؛ وهكذا أعطاه الله في الدنيا أجرًا عظيمًا وسيعطيه في الآخرة أيضًا الدرجات العلى. (الآيتان ٢٧ - ٢٨)

ثم تحدث الله تعالى عن لوط عليه السلام الذي كان رسولاً إلى قوم كانوا يأتون أفعالاً شنيعة تتنافى مع الفطرة الإنسانية، وكانوا يقطعون الطريق ولا يتورعون عن ارتكاب الفواحش في الأماكن العامة. فلما نصحهم لوط قالوا ائتنا بالعذاب الذي تخوفنا منه إن كنت من الصادقين. فدعا لوط ربه وقال رب انصرني على القوم

المفسدين. (الآيات ٢٩ - ٣١)

فاستجاب الله دعاءه وقرّر هلاك قومه وأرسل بعض الصالحين من منطقته بخبر عذابهم. فجاء هؤلاء إلى إبراهيم أوّلاً فبشروه بولادة إسحاق ويعقوب عنده، ثم أخبروه بأن الله يريد إنزال عذابه على قوم لوط. فحزن إبراهيم بالخبر وقال إن لوطًا مقيم في قريتهم وهو من عباد الله الأخيار. فقالوا سينجو لوط وجميع أقاربه من العذاب إلا زوجته التي حكَم الله بعذابها. (الآيتان ٣٢ -٣٣)

ثم جاء هؤلاء الصلحاء إلى لوط. وكان قومه قد نهوه بشدة عن الاتصال بالأجانب واستضافتهم وإقامتهم عنده، فضاق ذرعًا بمجيء هؤلاء الناس خوفًا من مضايقة قومه، ولكن هؤلاء الصلحاء هدّؤوا من روعه وقالوا لا حاجة للقلق، فإن الله تعالى قد قرر إهلاك قومه، فجاء العذاب وهلك القوم، فصاروا عبرة لمن بعدهم. (الآيتان ٣٤-٣٥)

ثم أرسلنا شعيبًا إلى قوم مدين، ولكنهم اتبعوا سبيل قوم لوط وكفروا بنبيهم، فأخذهم عذاب مخيف ارتجفت منه القلوب. ثم هلكت عاد وثمود، ودُمِّر قارون وفرعون وهامان لمعارضتهم موسى. ولم يهلك أي من هذه الأقوام إلا من جراء معاصيهم، ولم يظلمهم الله شيئًا. (الآيات ٣٦-٤١)

ثم بين الله تعالى أن المشركين يعتبرون آلهتهم الباطلة ملاذًا لهم، ولكن ملاذهم هذا أضعف من بيت العنكبوت وسيمزَّق كل ممزَّق. ليتهم يعلمون هذه الحقيقة. (الآية ٤٢)

إن الله يعلم الذين يتآمر معهم المشركون ويستعينون بهم لإلحاق الضرر بالإسلام، ولكنهم لن ينجحوا في مكائدهم لأن الله غالب حكيم. (الآية ٤٣)

لقد بيّنّا هذه الأحداث والأمثال ليتعظ بها الناس، وما يتذكر إلا الذين يخشون الله. (الآية ٤٤)

كان حريًّا بهم أن يتفكروا في خلق السماوات والأرض فيعلموا أن الله تعالى قد خلقها لغاية عظمى. وإن في خلقها آية عظيمة للمؤمنين.. أي أنهم يعلمون أن السماوات والأرض كما هي ضرورية في العالم المادي كذلك لا بد من الوحي مع

العقل في العالم الروحاني. (الآية ٤٥)

يا محمد، إنما السبيل لإصلاح الناس أن تقرأ عليهم القرآن الكريم، وتعمل على إقامة الصلاة جماعةً في العالم، فإن هذا سيقضي على المساوئ والمنكرات كلها، بل إن من أكبر منافعه أنه سيتيح للناس فرصة ذكر الله الذي هو بحد ذاته أعظم المقاصد. وإذا جادلتم أهل الكتاب فجادِلوهم على ضوء الأدلة القرآنية لا جزافًا من عند أنفسكم. أما الأشرار الظالمون منهم فيجوز لكم الرد عليهم بما يسكّتهم ويبكّتهم. عليكم أن تذكّروا أهل الكتاب بأن لا جدوى من الجدال فيما بيننا، فإنكم موحدون ونحن أيضًا موحدون، تعالوا نتحد ونعمل على نشر وحدانية الله ومحو الوثنية من العالم. (الآيتان ٤٦-٤٧)

ثم قال الله تعالى لنبيه لقد نـــزل عليك القرآن الكريم الآن كما نـــزلت التوراة على موسى من قبل، وإن المسلمين يؤمنون بصدق القرآن، بل إن السعداء من اليهود أيضًا يؤمنون به، ولكن الذين يصرّون على كفران النعمة يكفرون بما ورد في القرآن من قضايا وأحكام زاعمين أنه يعيد قصص التوراة والإنجيل. والحق أن محمدًا لم يكن يتلو أي صحيفة سماوية قبل نـــزول القرآن، بل لم يكن قادرًا على نسخها، فكيف يقال أنه ينقل أساطير الأولين؟ إنها ليست أساطير بل هي آيات بينات والدليل على ذلك أن الذين قد أوتوا علم القرآن تزخر صدورهم بالمعارف والعلوم. ولكن الظالمين يصرّون على الإنكار ويقولون لِمَ لم تنـــزل على محمد آيات من السماء؟ فيرد الله عليهم بأنكم لا تعنون من الآيات إلا نـــزول العذاب في الواقع، فاعلموا أن الله تعالى سينـــزل العذاب حتمًا. ولكن ألا يكفيهم آيةً أنه قد أنـــزل عليك كتابًا كاملا فيه حلٌّ شامل لجميع العيوب والمفاسد، ورسالةُ رحمة لشعوب العالم كلها، وموعظة كبيرة للمؤمنين؟ (الآيات ٤٨-٥٢)

فإذا لم يقتنعوا بهذا الدليل فقل لهم أفوض الأمر إلى الله تعالى الآن، فإنه يعلم أسرار السماوات والأرض. من المحال أن يفشل الصادق وينجح الكاذب. لن يحيط الهلاك إلا بالذين يؤمنون بالأكاذيب ويكفرون بالله ورسله. (الآية ٥٣)

إنهم يريدون أن تتحقق أنباء هلاكهم التي تلقّيتَها فورًا، ولكن الله بطيء في غضبه

ويريد أن يمهلهم قليلاً. وليعلموا أن العذاب كلما أتاهم في الدنيا فسيأتيهم بغتة. ثم هناك عذاب آخر سيصيب الذين يكفرون بالإسلام جميعًا ويحيطهم من فوقهم ومن تحتهم، فلن ينفع الزعماءُ جماهيرَهم ولا الجماهير زعماءَهم، فيقال لهم ذوقوا الآن ما كنتم تعملون. (الآيات ٥٤ – ٥٦)

أيها المؤمنون إذا كان الكافرون يضطهدونكم فاخرجوا إلى بلاد أخرى، وأقيموا عبادتي في الدنيا، ولا تخافوا أنكم إذا خرجتم من وطنكم سيصيبكم الموت، إذ لا مناص لأحد من الموت، واعلموا أنكم لو متم في سبيل الله فسترجعون إليه في نهاية المطاف، فيعطيكم أفضل جزاء، ويُسكنكم في مساكن عالية تجري من تحتها الأنهار. (الآيات ٥٧-٥٩)

ثم أوضح الله تعالى أنه لا بد من الصبر والتوكل في هذا السبيل، فلا تظنوا أنكم إذا نذرتم حياتكم في سبيل الله تعالى فلن تجدوا ما تأكلون؛ ألا ترون أن الدواب لا تحمل معها رزقها، ومع ذلك يرزقها الله ويسدّ حاجاتها ليلاً ونهارًا؟ فاعلموا أنكم لو صرتم لله تعالى لرزقكم، لأنه يستجيب الدعاء ويعلم أحوال عباده جيدًا. (الآيتان ٦٠ -٦١)

وإذا خرجتم في الأرض لنشر وحدانية الله تعالى فاسألوا الوثنيين أثناء الجدال: مَن الذي خلق السماوات والأرض؟ ومن الذي سخر الشمس والقمر لخدمة الناس بدون أجرة؟ أهذا فعلُ بعض آلهتكم المزعومة؟ فلن يكون جوابهم إلا أن يقولوا إن كل هذا مِن خلق الله وفعله. فانظروا كيف يؤفكون بعد هذا الاعتراض أيضًا.

إن ظاهرة بسط الرزق وضيقه أيضًا تابعة لناموس وضعه الله تعالى، ولا دخل فيها لغيره، فهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء. وإن في ضيق الرزق وبسطه حِكمًا عظيمة جعَلها الرب العليم. (الآيتان ٦٢- ٦٣)

ثم اسألوا هؤلاء الوثنيين: من الذي أنـــزل من السماء ماءً وأحيا به الأرض بعد موتها؟ هل يقدر على ذلك أحد من آلهتكم؟ فلن يكون جوابهم إلا أن يقولوا إن هذا مِن فعل الله تعالى وحده. فقل: قد ثبت من هنا أن الله هو صاحب الحمد كله. وما دام الحمد كله لله تعالى فمن أين أتيتم بالآلهة الباطلة التي تتحدثون عنها. (الآية

٦٤)

لقد تمت الحجة عليهم من الناحية العلمية، ولكنهم مصرون على عقائدهم الخاطئة، وذلك لأن الإيمان بالله وحده يتطلب منهم ترك الدنيا وهم لا يريدون تركها. الحق أن الحياة الدنيا ليست إلا لهوًا ولعبًا، وإنما الحياة الحقيقية في الآخرة. فترى أنهم إذا كانوا في سفينة يحيط بها الطوفان ينسون آلهتهم كلها، ويدعون الله تعالى بحرقة وبكاء مخلصين له الدين، وعندما تصل السفينة إلى بر الأمان يكفرون بنعمة الله. ولكن سيأتي يوم حتمًا يرون فيه بأم أعينهم جزاء أعمالهم ويدركون أنهم قد ارتكبوا خطأً فادحًا بإنكار وحدانية الله. (الآيات ٦٥-٦٧)

ألم يروا أننا جعلنا مكة قرية آمنة لا يتعرض لأهلها أحد بسوء، بينما يكثر القتل وسفك الدماء والفساد في المناطق حولها. فلِمَ يرغبون في الباطل رغم رؤية هذه المنة الإلهية العظيمة ويكفرون بنعمة الله التي أعطاهم في شكل محمد ﷺ؟

عليهم أن يعلموا أن أكبر الظالمين في الدنيا شخصان: الأول من يفتري على الله، والثاني من يُكذّب رسولاً يبعثه الله تعالى، ومن المحال أن يفلح أي من الشخصين أبدًا. أما الذين يرغبون في قربنا ويسعون لذلك سعيًا حثيثًا بالتضحية والإيثار فسنزيدهم في قربنا الذي لا نهاية له حتى يدخلوا في كنفنا. وهكذا سنعامل المؤمنين الآن أيضًا، فيتشرف المحسنون بقرب الله ومعيّته، وسيظل الكافرون يحترقون في نيران خيبة الأمل. (الآيات ٦٨-٧٠)